

مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

الحِجَاج وتداوليته في الخطاب الأصولي

نماذج من رسالة الإمام الشافعي

Argumentation and its pragmatics in the fundamentalist discourse: Models from AL-RISALA of Imam Al-Shafi'i

بلقاسم عريبي*

كلية الآداب واللغات جامعة امحمد بوقرة بومرداس (الجزائر)

تاريخ النشر: 2025/12/01

تاريخ القبول: 2025/10/01

تاريخ ارسال المقال: 2025/09/02

*المؤلف المرسل

الملخص:

يتناول هذا البحث تحليل الحجاج في الخطاب الأصولي عند الإمام الشافعي، من خلال توظيف أدوات اللسانيات التداولية لفهم البنية الحجاجية وألياتها في كتاب " الرسالة " .

انطلق البحث من فرضية مفادها أن الخطاب الأصولي ليس مجرد عرض للأحكام الشرعية، بل هو بنية لغوية حجاجية تُستثمر فيها استراتيجيات التداول والإقناع.

ومن خلال المنهج التحليلي التداولي، تم تتبع أشكال الحجاج، وأدواته ومقاصده ضمن النصوص الأصولية، مع إبراز البعد التفاعلي للنص في سياقه المعرفي واللغوي.

وقد بين البحث أن الشافعي مارس حجاجاً عقلياً ونقلياً يُظهر براعة لغوية ومنهجية في بناء الاستدلال، مما يكشف عن عمق التأصيل اللغوي في بناء النظرية الأصولية.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، التداولية، الخطاب الأصولي، الرسالة، الشافعي.

Abstract :

This research investigates argumentation in the usuli discourse of Imam al-shafi, employing tools from pragmatic linguistics to explore its argumentative structure and mechanisms, particularly in al-risala.

The study assumes that usuli discourse is not a mere presentation of legal rulings, but a complex argumentative framework based on pragmatic and persuasive method, various forms and functions of argumentation were examined, highlighting the interactive dimension of the text within its epistemological and linguistic context.

The findings show that al-shafi'i's discourse exhibits both rational and scriptural argumentation, characterized by linguistic and methodological precision, reflecting the foundational role of language in usuli theory.

Keywords: ;Argumentation; Pragmatics; The speechFundamentalist; ; Al-Shafi'i; AL-RISALA

(مقدمة) :

يُعد الحجاج من المباحث الأساسية التي تعني بفن بناء الإقناع والاستدلال في مختلف مجالات الفكر والنقاش، حيث يعتمد على مجموعة من الأدوات والأنماط التي تسهم في تشكيل الخطاب بطريقة مؤثرة تهدف الى إقناع المتلقي أو الرد على اعتراضاته، وقد تبلور هذا العلم في مجالات متعددة، من أبرزها (علم أصول الفقه) ، الذي يُعد الركيزة الأساسية لفهم الأحكام الشرعية واستخراجها من مصادرها المتمثلة في القرآن والسنة وما تفرع عنهما من الأدلة، من خلال أدوات عقلية ونقلية دقيقة.

وفي هذا السياق يتميز (الخطاب الأصولي) بكونه أداة علمية تُستخدم لعرض الأدلة، وبناء الحجج، وتقديم الردود على الاعتراضات في المسائل الفقهية المختلفة، ويظهر (الإمام الشافعي) كأحد أعلام هذا الخطاب، حيث يعد أول من أسس لهذا العلم (علم أصول الفقه) من خلال كتابه الرسالة، الذي يعد مرجعاً رئيسياً من مراجع الأصول ، وقد تميز أسلوبه الحجاجي بالجمع بين الأدلة النقلية والعقلية، مع التركيز على (المنطق) كوسيلة لتأسيس الأحكام، ما جعله يمثل نقطة فارقة في تطور علم الأصول.

من جهة أخرى، فإن (اللسانيات التداولية)، التي تركز على دراسة سياق استخدام اللغة وكيفية توجيه الخطاب لتحقيق الإقناع والتفاعل مع المتلقي، تمثل إطاراً تحليلياً هاماً لدراسة الخطاب، فقد ساعدت هذه اللسانيات على فهم كيفية بناء الحجج في الخطاب من خلال تحليل الأدوات اللغوية المستخدمة في الاستدلال والردود والتفاعل مع الأبعاد السياقية التي يتضمنها الخطاب، ويُعتبر ربط اللسانيات التداولية بالخطاب الأصولي نقطة أساسية لفهم ديناميكية بناء الحجج والتفاعل اللغوي داخل النصوص الأصولية.

يهدف هذا البحث الى تحليل الحجاج في الخطاب الأصولي عبر دراسة نصوص الإمام الشافعي واتخاذها كنموذج، لاسيما في كتاب (الرسالة)، باستخدام الأدوات التحليلية التي توفرها اللسانيات التداولية ويسعى البحث الى استكشاف كيفية توظيف الشافعي لمختلف أساليب الاستدلال والردود والحجج في بناء خطابه الفقهي، وكيفية تكامل هذه الأساليب مع السياق الذي يُقدم فيه النص الأصولي.

كما يهدف البحث الى تقديم دراسة مقارنة لفهم كيفية تداخل عناصر اللغة والإقناع والمقام في تحقيق التأثير الفعال لدى المتلقي في المجال الفقهي الأصولي.

(أسباب اختيار الموضوع للبحث) :

جاء اختيار موضوع " الحِجَاج وتداوليته في الخطاب الأصولي " استجابة لجملة من الدوافع العلمية والمنهجية التي تجتمع عند تقاطع حقلين معرفيين مركزيين وهما: " علم أصول الفقه " و " اللسانيات التداولية " ونجمل أسباب الاختيار في مايلي:

أولاً: يعود الدافع الأساسي الى أهمية " الخطاب الأصولي " ذاته، بوصفه خطاباً تأسيسياً في الثقافة الإسلامية، يقوم على انتاج القواعد والمنهجيات التي تضبط الاستدلال الفقهي، وتؤطر العلاقة بين النصوص الشرعية والعقل الاجتهادي، ولأن هذا الخطاب يتأسس على بناء الحجج ومواجهة الاعتراضات، فهو بطبيعته خطاب حجاجي بامتياز، مما يجعله مجالاً غنياً للتحليل اللساني.

ثانياً: إن " الإمام الشافعي "، بوصفه واضع البنات الأولى لعلم أصول الفقه، يُعد من أبرز من مارس الحِجَاج داخل الحقل الأصولي، من خلال مشروعه العلمي في الرسالة، فقد عالج قضايا معقدة تتعلق بسلطة النص، ومشروعية القياس، وحدود الاجتهاد، ومسألة النسخ، وحجية خبر الواحد، وغيرها من القضايا، مستخدماً بنية خطابية تقوم على المناظرة والرد والتعليل، وهو ما يجعل نصوصه نموذجاً تطبيقياً غنياً لتحليل الحِجَاج في ضوء المفاهيم التداولية.

ثالثاً: يُمثل هذا الموضوع محاولة لسد فراغ بحثي قائم في الدراسات العربية المعاصرة، يتضمن في قلة الأعمال التي تعالج " الخطاب الأصولي " من منظور لساني تداولي، خصوصاً في بعده الحجاجي، فبينما تناولت كثير من الدراسات الحِجَاج في الفلسفة أو البلاغة، قلما تم تناول الحِجَاج بوصفه ظاهرة لغوية وسياقية في النصوص الأصولية ذات البعد الشرعي.

رابعاً: يهدف هذا البحث الى إحداث تفاعل بين العلوم الإسلامية واللسانيات الحديثة، وذلك عبر توظيف مفاهيم التداولية كالمقام، وقصدية المتكلم، وفعل القول، واستراتيجية الإقناع في تحليل خطابات أصولية ذات طابع فقهي، مما يسهم في تقديم مقارنة متعددة التخصصات وتعزز إمكانيات التحليل النصي المعاصر للنصوص التراثية.

(أهداف البحث) :

يهدف هذا البحث الى تحقيق مجموعة من الأهداف العلمية والمعرفية التي تتقاطع عند دراسة الحِجَاج في الخطاب الأصولي من منظور لساني تداولي، ويمكن إجمال هذه الأهداف في المحاور الآتية:

1. تحليل البنية الحجاجية للخطاب الأصولي كما تمثلها نصوص الإمام الشافعي، وذلك من خلال الكشف عن الأليات اللغوية والأسلوبية التي يعتمد عليها في بناء حججه، وتفنيد حجج خصومه، وتأسيس مرجعيته العلمية في علم أصول الفقه.
2. توظيف مفاهيم اللسانيات التداولية في دراسة الخطاب الأصولي، ولا سيما مفاهيم: المقام، قصدية المتكلم، أفعال القول، الاستدلال، والتفاعل الحواري، بغرض تقديم مقارنة جديدة تُعزز من فهمنا لتركيب الخطاب الأصولي وطرق تأثيره في المتلقي.
3. الكشف عن الطابع الجدلي والتفاعلي لخطاب الشافعي، من خلال تتبع استراتيجيات الإقناع، وأنماط الحوار، وكيفية الرد على الاعتراضات، وتوظيف الأدلة الشرعية والعقلية.
4. بيان القيمة التداولية للخطاب الأصولي، بوصفه خطاباً يُنتج ضمن سياق جدلي علمي، له شروطه ومقامه الخاص، مما يتيح مقارنته بمنهج تداولي حديث يأخذ بعين الاعتبار السياق الحواري والمعرفي الذي نشأ فيه.
5. الإسهام في فتح آفاق جديدة للبحث في النصوص التراثية الإسلامية، من خلال استخدام أدوات تحليل حديثة "لسانية تداولية"، بما يُسهم في تجاوز القراءة التقليدية للتراث، ويمنح الباحث قدرة على فهم أعمق لبنية للخطاب الإسلامي في سياقه العلمي واللغوي.
6. تعزيز التكامل المعرفي بين الدراسات الشرعية والدراسات اللسانية، عبر تقديم نموذج تطبيقي لتحليل نصوص أصولية تراثية بمنهج علمي معاصر، يُراعي خصوصية النص والمجال التداولي الذي ينتمي إليه.

(الإشكالية والمنهج) :

أولاً: إشكالية البحث

كيف يتجلى البُعد الحجاجي في الخطاب الأصولي كما يظهر في نصوص الإمام الشافعي، وما مدى إمكان تحليل هذا الخطاب من خلال أدوات اللسانيات التداولية؟

ويتفرع عن هذا السؤال الأساسي عدد من الأسئلة الفرعية:

1. ما السمات التي تجعل الخطاب الأصولي خطاباً حجاجياً؟
2. ما أبرز الاستراتيجيات الحجاجية التي وظفها الإمام الشافعي في الرسالة؟

3. كيف يمكن للمفاهيم التداولية مثل: المقام، أفعال القول، مقصدية المتكلم، أن تضيئ بنية الخطاب الأصولي؟

4. هل يسمح التحليل التداولي بفهم أعمق للمنطق الداخلي للنقاشات الأصولية التراثية؟

تتجلى أهمية هذه الإشكالية في كونها تسعى إلى تجاوز القراءة التقليدية للنص الأصولي، والانفتاح على مقاربات تحليلية حديثة تمكن من إدراك البُعد التواصلية والجدلي لهذا الخطاب.

ثانياً: المنهج المعتمد في البحث

يعتمد هذا البحث منهجاً تحليلياً حجاجياً، يقوم على المستويات الآتية:

1. المنهج الوصفي التحليلي: لوصف الخطاب الأصولي كما يتمثل في نصوص الشافعي، وتحليل بنيته

الحجاجية دون إسقاط مسبق.

2. المنهج التداولي: لتتبع السياق الحوارية للنصوص، وتحليل أفعال القول، والمقاصد الكلامية، والعلاقات

التفاعلية بين المتكلم والمخاطب.

3. منهج الحجاج البلاغي: لرصد الأليات الحجاجية، مثل التقديم والتأخير، التقوية والتضعيف، ترتيب

الأدلة، وصياغة الاعتراضات والردود.

4. منهج المقارنة: للمقارنة بين خطاب الشافعي ونماذج أخرى من الخطابات المعرفية، لتبين خصوصية

المشروع الحجاجي عنده.

(الإطار النظري حول مفهوم الحِجَاج في التداولية) :

أولاً : تعريف الحِجَاج:

لغة: أصله من الفعل: حاج، بتشديد الجيم، قال ابن منظور: حاجته، أحاجه، حجاجاً ومحاجة حتى حججته،

أي غلبته بالحجج التي أدليت بها. وحاجه محاجة وحجاج نازعه الحجة. والحجة البرهان... ويقال رجل محجاج أي

جدل. والتحاج التخاصم. وحاجه أي نازعه الحجة.¹

اصطلاحاً: قد عرّفه بيرلمان وتيتيكا في البلاغة الجديدة بأنه: " دراسة التقنيات الخطابية التي من شأنها أن تؤدي

بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم".²

وعرفه ديكر: "بأنه فعل لغوي موجه إلى إحداث تحويلات ذات طبيعة قانونية، أي مجموعة من الحقوق والواجبات".³

وعرفه طه عبد الرحمان بـ: "أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها".⁴ في السياق العربي عُرف الحِجَاج ضمن علم الجدل والمناظرة، وكان أداة مركزية في العلوم العقلية والشرعية، لاسيما في أصول الفقه.

على أن أكثر المنظرين من علماء المسلمين الذين تناولوا موضوع الحِجَاج يجعلون ركنه الأساسي التفاعل والتدافع، ولا يفرقون بينه وبين الجدل، حيث ينص الإمام الجويني على أن الحِجَاج لا يكون إلا بين اثنين، وأنه لا فرق بينه وبين الجدل والمناظرة في الاصطلاح، فالجويني يعد الحِجَاج مرادفا للجدل ويجعله أسلوبا من أساليب النظر الموصل للحقيقة من خلال التدافع والتنافي الذي لا يزيد الوصول إلى الحقيقة إلا قوة ووضوحاً⁵

ومثله الإمام الباجي حيث يرى أنه لا فرق بين الحِجَاج والجدل، ولذلك سمى كتابه الشهير: (المنهاج في ترتيب الحِجَاج) وفيه عرف الجدل بأنه: "تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه".⁶

إذن الحِجَاج هو نشاط لغوي تواصل يهدف به التأثير في المتلقي، عبر تقديم الحجج والأدلة من أجل إقناعه، أو تعديل وجهة نظره، أو دفعه إلى اتخاذ موقف معين، وهو يتجاوز مجرد السرد أو التفسير، لأنه قائم على الجدل المنظم الذي يفترض دائماً وجود خلاف محتمل أو قائم بين المتكلم والمخاطب.

ثانياً: التداولية ومفاهيمها الأساسية:

اللسانيات التداولية (pragmatics) هي الفرع من اللسانيات الذي يهتم بدراسة اللغة في استعمالها الفعلي داخل السياقات التواصلية، بخلاف اللسانيات الشكلية التي تدرس الجملة في ذاتها. والتداولية تعني بالقوانين الكلية لاستعمال اللغة وقدرة الإنسان على التواصل اللغوي ولهذا عرفت بأنها: " (علم استعمال اللغة) وقد نقول في تعريفها: بأنها نسق معرفي استدلاي عام يعالج الملفوظات ضمن سياقاتها التلفظية، والخطابات ضمن أحوالها التخاطبية "⁷

تهتم التداولية بما يلي:

1. المقام: الظروف المحيطة بالخطاب من زمان ومكان وطبيعة المتخاطبين.

2. القصدية: ما ينويه ويقصده المتكلم من قوله.
3. أفعال القول: ما يقوم به المتكلم عند النطق مثل الأمر، السؤال، التبرير والاعتراض....الخ
4. الضمنيّات: المعاني التي تُفهم ضمناً من السياق دون أن تُصرح بها اللغة.
5. الافتراضات المسبقة: ما يفترضه المتكلم والمخاطب مسبقاً كخلفية مشتركة.

ثالثاً: الحِجَاج في التداولية:

يتقاطع الحِجَاج مع التداولية في كونه نشاطاً تواصلياً مشروطاً بالسياق، يعتمد على:

- تقدير المقام والمخاطب.
- استخدام أفعال قولية مؤثرة.
- ترتيب الأدلة بحسب مقصد الإقناع.
- توظيف أساليب بلاغية (مثل: الإستفهام، التقابل، الإضراب، التضخيم... الخ)

والحِجَاج ليس مقصوراً على الحوار، بل يتجلى حتى في البنية اللغوية للجملة الواحدة، وهو ما يجعل التداولية أداة فعالة لتحليل الخطاب الحجاجي حتى في النصوص الأحادية (كما في كتاب الرسالة للشافعي).

رابعاً: أهمية الإطار التداولي في تحليل الخطاب الأصولي.

- الخطاب الأصولي خطاب جدلي في جوهره، يُبنى على إثبات وجهة نظر من خلال الاستدلال والنقاش.
- الإمام الشافعي، باعتباره أول من دون في علم الأصول، وظف الحجج بمستويات بلاغية وعقلية وفقهية، في سياقات حوارية ظاهرة أو ضمنية.
- لهذا، يُعد المنهج التداولي أداة فعالة لفهم آليات التأثير والإقناع في خطابه، ولا سيما إذا أدرج ضمن تحليل لغوي عميق لبنيته النصية.

(تحليل نماذج حجاجية من كتاب الرسالة للإمام الشافعي):

تمهيد: يُعد الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت 204هـ)، أول من كتب في أصول الفقه⁸، وكتابه الرسالة يُعد المؤسس لهذا العلم، يتميز هذا الخطاب الأصولي ببنية حجاجية قوية، تستند إلى القرآن والسنة والإجماع والقياس، وتُبنى فيه الآراء على مقدمات عقلية ونقلية متسلسلة.

" وللشافعي اختصاص بالحجاج والجدل، شأنه في ذلك شأن عصره وزمانه الذي اشتد فيه عود المجادلات العلمية والمناظرات المعرفية"⁹

في هذا القسم، سنحلل بعض المقتطفات من كتاب الرسالة تحليلاً تداولياً حجاجياً، للكشف عن الآليات التي يستخدمها الشافعي في إقناع متلقيه واستمالته لقبول ما يتبناه من أقوال وأراء فقهية.

أولاً: مثال تحليلي - في الاحتجاج بالسنة:

يقول الشافعي في الرسالة: " وأن الله افترض طاعة رسوله وحتم على الناس اتباع أمره فلا يجوز أن يقال لقوله فرضٌ إلا لكتاب الله ثم سنة رسوله."¹⁰

التحليل:

فعل القول الحجاجي: الشافعي يُقرر قاعدة كلية بسلطة مطلقة: " وأن الله افترض طاعة رسوله "

المقام: جدل مع من يُقدم العقل أو الرأي أو يُخالف السنة.

مقصدية المتكلم: تعزيز شرعية السنة بوصفها مفسرة للقرآن، وليست مصدراً مستقلاً منقطعاً عنه.

الاستراتيجية الحجاجية:

1. الربط بين مصدرين (القرآن والسنة) لتقوية الحجة.
2. الإقصاء الحجاجي: " وليس لأحد خلاف "، وهو نوع من الغلق الحجاجي يمنع الاعتراض.
3. التقديم والتأخير: قدم " كتاب الله " لتأكيد مركزية النص القرآني.
4. الافتراض المسبق: أن المتلقي يقر بمرجعية القرآن.

ثانياً: مثال تحليلي - في حجية القياس.

يقول الشافعي: " وهذا الصنف من العلم دليلٌ على ما وصفتُ قبلَ هذا على أن ليس لأحد أبداً أن يقول في شيء حلٌّ ولا حرْمٌ إلا من جهة العلم وجههُ العلم الخبرُ في الكتاب أو السنة أو الاجماع أو القياس"¹¹

التحليل:

أفعال القول: تقرير حُكم (" ليس لأحد أبداً أن يقول في شيء حلٌّ ولا حرْمٌ إلا من جهة العلم.. ")

القصدية: إقناع المتلقي بأن القول في الأحكام لا يكون بالرأي المجرد.

الاستراتيجية الحجاجية:

التضمين المفهومي: لا اعتبار إلا لما له أصل " لازم أو قياس " معلوم .

الاستدلال العقلي: القياس يكتسب قيمته من ارتباطه بالأصل.

المخاطب الضمني: من يجيز الاجتهاد المطلق دون أصل.

ثالثاً: مثال تحليلي - في التدرج الحجاجي:

يقول الشافعي: " قال ودَكَرَ اللهُ مَنْ حَرَّمَ ثُمَّ قَالَ: وَأَجَلٌ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ (فقال رسولُ الله "لَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا وَلَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا فَلَمْ أَعْلَمْ مُخَالَفًا فِي اتِّبَاعِهِ فَكَانَتْ فِيهِ دِلَالَتَانِ دِلَالَةٌ عَلَى أَنَّ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ لَا تَكُونُ مُخَالَفَةً لِكِتَابِ اللَّهِ بِحَالٍ وَلَكِنَّهَا مُبَيَّنَةٌ عَامَّةٌ وَخَاصَّةٌ"¹²

التحليل:

الترتيب الحجاجي:

أولاً: بيان المعرفة المشتركة (" فلم أَعْلَمْ مُخَالَفًا فِي اتِّبَاعِهِ .. ").

ثانياً: نفي التناقض بين الكتاب والسنة.

ثالثاً: تفصيل الوظائف البيانية للسنة.

التداولية:

يراهن على الخلفية المشتركة بينه وبين المتلقي.

يوظف " الاتفاق الضمني " كأساس لتقوية الحجة.

يُقنع دون تصادم، بل بالبيان التدريجي.

رابعاً: مثال تحليلي - في الاحتجاج بالإجماع.

" ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أمر بلزومها، وإنما تكون الغفلة في الفرقة، فأما الجماعة فلا يمكن فيها كافةً غفلةً عن معنى كتاب ولا سنة ولا قياس إن شاء الله ".¹³

التحليل التداولي الحجاجي:

نوع الحجة: تأسيس قاطع لمرجعية الإجماع بعد النصوص.

القصدية التداولية: إغلاق باب الجدل بتقرير " لزومية " ما أجمع عليه.

أفعال القول: استخدام " وإنما تكون الغفلة في الفرقة " و " فأما الجماعة فلا يمكن فيها كافةً غفلةً " يمثلان فعلين حجاجين من نوع المنع والتقييد.

الافتراض المسبق: أن الجميع يعترف بمرجعية الإجماع.

الاستراتيجية: التدرج من النص المقدس (القرآن، السنة) مروراً بالعقل الجماعي (الإجماع) وصولاً إلى (القياس).

خامساً: مثال تحليلي – في رد القياس الفاسد.

" ولا يقيس إلا من جمع الآلة التي له القياس بها وهي العلم بأحكام كتاب الله وفرضه وأدبه وناسخه ومنسوخه وعامه وخاصه وإرشاده ".¹⁴

التحليل التداولي الحجاجي:

نمط الحجة: قياس مع التقييد الحاد.

القصدية: تقنين استعمال القياس ضمن حدود النصوص.

الفعل الكلامي: فيه رفض وتقويم لخطأ منهجي شائع.

الاستراتيجية: تقنين = سلطة معرفة - ربط القياس بالصواب والخطأ = إقناع عقلائي أخلاقي.

سادساً: مثال تحليلي – تفنيد موقف الخصم:

" قلت فرض الله الوضوء على من قام إلى الصلاة من نومه فقال : إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ . فقصد الرجلين بالفرض كما قَصَدَ قَصَدَ ما سواهما في أعضاء الوضوء. فلما مسح رسول الله على الخفين لم يكن لنا والله أعلم أن نمسح على عمامة ولا بُرْفَع ولا قُفَّازين قياساً عليهما وأثبتنا الفرض في أعضاء الوضوء كلها وأرخصنا بمسح النبي في المسح على الخفين دون سواهما" ¹⁵

التحليل التداولي الحجاجي:

الفعل الحجاجي: نقض رأي من يقول بالمسح على العمامة بالتمثيل والسنة.

التقنية المستعملة: الحجاج بالمفارقة - الرأي يقول كذا، ولكن السنة تقول خلافه.

مخاطبة العقل والعادة: المسح على البرقع والعمامة والقفازين أسهل في التطبيق، لكن السنة ترجح خلافه.

نتيجة تداولية: تقويض الاستدلال العقلي المجرد ما لم يستند إلى نقل.

ملاحظات ختامية على هذه الشواهد:

هذه الشواهد تكشف لنا أن خطاب الشافعي رحمه الله يعتمد على:

1. دقة تداولية في ترتيب الحجة.
 2. بنية حجاجية تعتمد التقييد، الإقصاء، والتقنين.
 3. مراعاة الخصم الضمني عبر تفنيد حججه بصورة غير مباشرة.
 4. ثنائية العقل والنص في بناء الحجاج.
 5. وعي لساني بالمتلقي، إذ يُخاطب أحياناً عقل العالم، وأحياناً فهم العامة.
- من خلال تحليل هذه النماذج يتبين لنا أن الإمام الشافعي يستخدم:

1. أفعال قول تقريرية وحاسمة.
2. مفاهيم تراتبية حجاجية (الأصل/ الفرع - العام/ الخاص)
3. إقناع قائم على الوصل بين النصوص والتعليل العقلي.
4. تقدير واضح للسياق والخطاب الموجه (نبره خطابية، لا مجرد تنظير فقهي).

كل ذلك يجعل خطابه الأصولي مادة خصبة لتحليل تداولي - حجاجي، يكشف عن أدوات التأثير في ذهن المتلقي، ويؤكد أن الشافعي لم يكن مجرد فقيه، بل أيضاً بليغ مُحاجج يمارس بناء المعنى من خلال استراتيجيات لسانية واعية.

(مناقشة النتائج ومقارنتها):

أولاً: نتائج التحليل التداولي - الحجاجي لنصوص الإمام الشافعي.

من خلال تحليل نماذج متقاة من الرسالة، تم الكشف عن بنية حجاجية معقدة في الخطاب الأصولي عند الإمام الشافعي، وتُمكننا هذه الدراسة من الوقوف على مجموعة من النتائج المهمة وهي:

1. الخطاب الأصولي خطاب حجاجي بامتياز:

التحليل أظهر أن الخطاب الأصولي لا يقتصر على التقرير العلمي أو النقل المجرد، بل يقوم في جوهره على إقناع المتلقي، وتفنيد الآراء المخالفة، وتوجيه الفهم عبر استراتيجيات حجاجية محكمة، وهذا يعكس وعياً تداولياً لدى المتكلم (الشافعي)، يراعي فيه الخلفية المعرفية لمتلقيه.

2. تنوع أدوات الحجاج واستراتيجياته:

يعتمد الشافعي على أدوات حجاجية متعددة، منها:

- أفعال القول الملزمة: مثل " لا يجوز " ، " لا يحتج " ، " لا يُقال " .
- الترتيب الحجاجي: ترتيب الأدلة حسب القيمة (الكتاب - السنة - الإجماع - القياس)
- الإقصاء والحد: نفي شرعية الآراء التي تخالف النصوص، عبر عبارات قطعية.
- التقديم المنطقي: عرض مقدمة ثم نتيجة واضحة، مع تأكيد الرابط بينهما.
- تفنيد الخصم الضمني: عبر التقديم أمثلة عكسية أو حالات تُبطل رأيه.

3. الحجاج في الخطاب الأصولي متجذر في النصوص الدينية:

تُستمد الحجج من النصوص الشرعية (القرآن والسنة)، ولا يُستقل العقل بالحكم، بل يُستخدم كأداة لفهم النص لا لمعارضته، وهذا يمنح الحجاج طابعاً شرعياً، وليس عقلانياً فقط.

4. حضور المخاطب الضمني (الخصم):

الشافعي كثيراً ما يبيّن حججه وكأنه يرد على معترض، دون أن يُصرح باسمه، ويستعمل أسلوب الفنقلة، ويُقدم الحجة والنقض في الوقت نفسه، مما يُكسب خطابه طابعاً جدلياً حجاجياً.

5. التركيب التداولي للخطاب:

الخطاب عند الشافعي مبني بطريقة تراعي المقام وسياق الجدل:

- إذا كان الهدف إقناع طالب علم = مزيد من التفصيل والاستدلال.
- إذا كان الهدف نفي بدعة أو رد قول = لهجة حازمة وأسلوب قطعي.

ثانياً: مقارنة الخطاب الأصولي الحجاجي بخطابات معرفية أخرى:

لفهم تميز خطاب الشافعي، يمكن مقارنته بنماذج خطابية موازية:

1. الخطاب الفلسفي الإسلامي (مثل خطاب ابن رشد)

- التماثل: كلاهما يستخدم العقل والقياس، ويبنى الحجة على مقدمات.
- الاختلاف: الشافعي لا يميز تقديم العقل على النص، بينما ابن رشد يحتكم للعقل ولو خالف ظاهر النقل.

2. الخطاب الكلامي (علماء الكلام كالأشاعرة والمعتزلة)

- التماثل: حضور الجدل ومخاطبة الخصم بشكل ضمني.
- الاختلاف: المتكلم يُكثر من الاحتمالات، بينما الشافعي يُغلب الحسم، ويقلل من فرضيات المعارضة.

3. الخطاب البلاغي التقليدي

- التماثل: استخدام الأساليب البلاغية مثل التقابل والتقديم والتأخير.
- الاختلاف: الخطاب الأصولي يوظف البلاغة لخدمة الحجاج العلمي، لا لإثارة الإعجاب أو التزيين.

ثالثاً: أثر اللسانيات التداولية في كشف بنية الحجاج:

إذا نظرنا إلى تحليل خطاب الشافعي من زاوية التداوليات، نجد أن:

- الخطاب موجه إلى متلقٍ مُفترض، له معرفة شرعية وخلفية مذهبية.
- تُبنى الحجة بناءً على السياق، النية (القصدية)، الخلفية المعرفية، النظام.
- يتضح أن التداولية تمنحنا أدوات دقيقة لفهم كيف تُبنى الحجة، وكيف يُقصي الخصم دون مواجهته، وكيف يُؤسس الاستدلال ضمن نسق معرفي مستقل.

إن تحليل الحجاج في الخطاب الأصولي يُثبت أن هذا الخطاب ليس خطاباً جامداً كما يُظن، بل هو ممارسة حجاجية واعية، تُراعي المتلقي، وتستخدم اللغة بحس تداولي عالٍ، وقد كشفت أدوات اللسانيات التداولية عن دقة بناء الحجة، وترتيبها، ومرجعياتها، مما يعزز من جدوى هذا المنهج الحديث في دراسة النصوص التراثية.

(الخاتمة):

يُظهر هذا البحث من خلال تحليل نماذج مختارة من الرسالة للإمام الشافعي، أن الخطاب الأصولي الإسلامي يمتاز ببنية حجاجية دقيقة تستدعي أدوات تحليل متقدمة لفهمها، أبرزها أدوات (اللسانيات التداولية).

لقد كشف التحليل أن هذا الخطاب لا يكتفي بنقل المعرفة أو تكرار النصوص، بل يعتمد بشكل جوهري على تقنيات الإقناع وبناء الحجة، بما يراعي السياق والمقام والخصم الضمني.

إن الشافعي بوصفه واضع أسس علم الأصول، لم يكن مجرد فقيه أو ناقل للنصوص، بل كان ممارساً لخطاب عقلاني منضبط، يتعامل مع المتلقي على أنه شريك في بناء المعنى، لا مجرد متلقٍ سلبي، وقد اتضح أن خطابه يعتمد على (استراتيجيات تداولية متعددة)، مثل الترتيب المنطقي، نفي الأراء المخالفة، إقصاء الاحتمالات، وبناء الحجة تدريجياً وصولاً إلى الإلزام بها.

من جهة أخرى، أثبتت (اللسانيات التداولية)، فعاليتها العالية في تحليل هذا الخطاب، إذ وفرت أدوات مفاهيمية تساعد على فهم أفعال القول، ومقاصد المتكلم، والخلفية المعرفية للخطاب، والعلاقة بين الحجة وسياقها التداولي. بناءً على ما تقدم، يمكن لنا أن نقول إن دمج أدوات التداولية في تحليل الخطابات الأصولية يمثل خطوة نوعية نحو فهم أعمق للتراث الإسلامي، ويؤسس لتقاطع خصب بين علوم اللغة والعلوم الشرعية.

الهوامش:

- ¹ ابن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع، دار صادر، بيروت لبنان، مادة (ح ج ج) ص38.
- ² عبد الله صولة، في نظرية الحجّاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط 1، 2011، ص 13.
- ³ أبوبكر العزاوي، اللغة والحجّاج، العمدة في الطبع، ط 1، 2006 ص16.
- ⁴ طه عبدالرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط 1، المغرب، 1989، ص 226.
- ⁵ أبو المعالي الجويني، الكافية في الجدل، تح فوقيّة حسين مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، القاهرة، 1979، ص28.
- ⁶ أبو الوليد الباجي، المنهاج في ترتيب الحجّاج، تح عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط"، 2001، ص 11.
- ⁷ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دار التنوير للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2008، ص25.
- ⁸ ينظر أحمد شاكر، في مقدمته لتحقيق كتاب الرسالة، للإمام الشافعي، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط 1، 2007م، ص9.
- ⁹ مشاري الشثري، عبقرية الإمام الشافعي المدد والمداد، دار رسالة البيان للنشر والتوزيع، الرياض، ط 2، 1441هـ، ص 153.
- ¹⁰ محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة، تح أحمد محمد شاكر، دار ابن الجوزي، القاهرة، ط 1، 2007م، ص 126.
- ¹¹ الشافعي، الرسالة، ص 103.
- ¹² الشافعي، الرسالة، ص 218.
- ¹³ الشافعي، الرسالة، ص 370.
- ¹⁴ الشافعي، الرسالة، ص 391.
- ¹⁵ الشافعي، الرسالة، ص 412.